الجمال البائس

ـ ٢ ـ

جاءَت أحلى من الأمل المعترض ، سنحت به فرصةٌ ؛ وعلى أنَّها لم تَخْط إلينا إلا خطوةً ، وتمامها ؛ فقد كانت تَجدُ في نفسها ما تجده ؛ لو أنَّها سافرت من أرضٍ إلى أرضٍ ، ونقلها البُعْدُ النَّازح من أمَّةٍ إلى أمَّة .

يا عجباً ! إنَّ جلوسَ إنسانٍ إلى إنسانٍ بإزائه ، قد يكون أحياناً سفراً طويلاً في عالمِ النَّفس ، فهذه الحسناءُ تعيش في دنيا فارغةٍ من خِلالٍ كثيرةٍ ، كالتقوى ، والحياءِ ، والكرامة ، وسموِّ الرُّوح ، وغيرها ؛ فإذا عَرض لها من يُشْعِرُها بعض هذه الخلال ، ويَنْتَزِعُها من دنيا اضطرارِها ، وأخلاقِ عيشها ولو ساعةً ؛ فما تكون قد وَجدَت شخصاً ، بل كشفت عالماً تَدخُله بنفسٍ غير النَّفس الَّتي تُدبِّرها في عالم رزقِها .

ولا أعجب من سحر الحبِّ في هذا المعنى ؛ فإنَّ العاشقَ ليكون حبيبُه إلى جانبه ، ثمَّ لا يحسُّ إلا أنَّه طَوَى الأرض ، والسَّمواتِ ، ودخلَ جنَّة الخُلد في قبْلةٍ . . .

* * *

جلستْ إلينا كما تَجلسُ المرأةُ الكريمة الخَفِرَة : تُعطيك وجهها ، وتبتعد عنك بسائرها ، وتُريك الغصنَ ، وتخبأ عنك أزهارَه ، فرأيناها لم تستقبل الرَّجلَ منَّا بالأنثى منها ، كما اعتادت ؛ بل استقبلت واجباً برِعايةٍ ، وتلطُّفاً بحنانٍ ، وأدباً من فنٍّ بأدبٍ من فنٍّ آخر ، وكان هذا عجيباً منها ؛ فكلَّمها في ذلك الأستاذ (ح) فقالت : أمَّا واحدةٌ ؛ فإنَّنا نتبعُ دائماً مَحَبَّةَ مَنْ نجالِسهم ، وهذه هي القاعدة ، وأمَّا الثَّانية ، فإنَّنا لا نجدُ الرَّجل إلا في النَّدْرَة ، وإنَّما نحن مع هؤلاء الَّذين يَتسوَّمونَ بسيما الرِّجال كحيلة المحتال على غَفلة المغفَّل ، وهم معنا كالقدرةِ بالثَّمنِ على ما يشتريه الثَّمن : ليسوا علينا إلا قهراً من القهر ، ولسنا عليهم إلا سلْباً من السَّلب ، مادةٌ مع مادةٍ ، وشرٌّ على شرٍّ ، أمَّا الإنسانيَّةُ منَّا ، ومنهم ؛ فقد ذَهَبَتْ ، أو هي ذاهبةٌ .

قال (ح) : ولكن . . .

فلم تدعه يَستدرِك ، بل قالت : إنَّ « لكن » هذه غائبةٌ الآن . . . فلا تجيء في كلامنا ، أتريد دليلاً على هذا الانقلاب ؟ إنَّ كلَّ إنسانٍ يعلم : أنَّ الخطَّ المستقيمَ هو أقربُ مسافةٍ بين نقطتين ؛ ولكنْ كلُّ امرأةٍ منَّا تعلم : أنَّ الخطَّ المعْوَجَّ هو وحده أقربُ مسافةٍ بينها ، وبين الرَّجل . . . !

قالت : فإذا وَجَدَتْ إحدانا رجلاً بأخلاقِه ، لا بأخلاقها . . . ردَّتها أخلاقه إلى المرأة الَّتي كانت فيها من قبل ، وزادتها طبيعتها الزَّهْوَ بهذا الرَّجل النَّادر ، فتكونُ معه في حالةِ أكمل امرأة ، بَيْد أنَّه كمالُ الحُلمِ الَّذي يستيقظُ وشِيكاً ؛ فإنَّ الرَّجلَ الكامل يَكملُ بأشياءَ ، منها وا أسفا . . . ! منها ابتعادُه عنَّا .

ثمَّ قالت : وصاحبُك هذا منذ رأيتُه ، رأيتُه كالكتاب يشغَلُ قارئه عن معاني نفسِه بمعانيه هو .

وضحكتُ أنا لهذا التَّشبيه ، فمتى كان الكتاب عند هذه كتاباً يشغَل بمعانيه ؟ غيرَ أنِّي رأيتُها قد تكلَّمت ، واحتفلت ، وأحسنت ، وأصابت ؛ فتركتُها تتحدَّث مع الأستاذ (ح) ، وغبتُ عنهما غيبة فكرٍ ؛ وأنا إذا فكَّرْتُ ؛ انطبق عليَّ قولهم : خلِّ رجلاً وشأنه . فلا يتَّصلُ بي شيءٌ ممّا حولي . وكان كلامُها يسطعُ لي كالمصباح الكهربائيِّ المتوقِّد ، فقدَّمها فكرُها إليَّ غير ما قدَّمتها إليَّ نفسها ، ورأيتُ لها صورتين في وقتٍ معاً ، إحداهما تعتذِرُ من الأخرى . . .

وكنتُ قبل ذلك بساعةٍ قد كتبتُ في تذكرة خواطري هذه الكلمة الَّتي استوحيتُها منها ؛ لأضعَها في مقالةٍ عنها ، وعن أمثالها ، وهي :

« إذا خرجت المرأةُ من حدود الأسرة ، وشريعتها ؛ فهل بقي منها إلاَّ الأنثى مجرَّدةً تجريدها الحيوانيَّ المتكشِّف ؛ المتعرِّض للقوَّة ؛ التي تُنال ، أو ترغبُ فيه ؟ وهل تعملُ هذه المرأة عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأنثى ؟

« وما الذي استرعاها الاجتماعُ حينئذٍ فترعاه منه ، وتحفظه له ، إلا ما استرعى أهلُ المال أهلَ السَّرقة ؟ إنَّ الليلَ ينطوي على آفتين : أولئك اللُّصوصِ ، وهؤلاء النِّساء ! .

« وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مُشوَّهةً ما دامت رذائلها دائماً وراء عينيها ،

وما دام بإزاء عينيها دائماً الأمَّهاتُ ، والمُحْصناتُ من النِّساء ، وليس شأنها من شأنهنَّ ؟ إنَّ خيالها يُحرز في وَعْيه صورتَها الماضية من قبل أن تزِلَّ ، فإذا خلتْ إلى نفسها ؛ كانت فيها اثنتان ، إحداهما تلعنُ الأخرى ، فترى نفسها من ذلك على ما ترى .

« وهي حين تُطالعُ مرآتها لِتتبرَّج ، وتحتفِل في زينتها تنظر إلى خيالها في المرآة بأهواءِ الرِّجال لا بعينيْ نفسها ، ولهذا تُبالغُ أشدَّ المبالغة ؛ فلا تُعنى بأن تظهرَ جميلةً كالمرأة ، بل مُثمِرةً كالتَّاجر . . . وتكسُّبُها بجمالها يكونُ أوَّل ما تفكِّر فيه ؛ ومن ذلك لا يكون سرورُها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكسب منه ؛ بخلاف الطَّبع في المرأة ، فإنَّ سرورَها بمسحة الجمال عليها هو أوَّل فكرها ، وآخره .

« إنَّ السّاقطة لا تنظر في المرآة ـ أكثر ما تنظر ـ إلا ابتغاءَ أن تتعَّهدَ من جمالها ، ومن جسمها مواقع نظرات الفجور ، وأسباب الفتنة ، وما يستهوي الرَّجل ، وما يُفسد العفَّة عليه ؛ فكأنَّ السّاقطة وخيالها في المرآة رجلٌ فاسقٌ ، ينظر إلى امرأةٍ ، لا امرأةٌ تنظر إلى نفسها . . . » .

* * *

ذهبتُ أفكِّر في هذه الكلمة الَّتي كتبتُها قبل ساعةٍ ، ولم أستطع أن ألبسَ في هذه القَضيَّة وجه القاضي ؛ فدَخلتني رِقَّةٌ شديدةٌ لهذا الجمال الفاتن ، الَّذي أراه يبتسم ؛ وحوله الأقدار العابسة ؛ ويلهو ؛ وبين يديه أيّام الدُّموع ؛ ويجتهد في اجتذاب الرِّجال ، والشبَّان إلى نفسه ، والوقت آتٍ بالرِّجال والشُّبَّان الَّذين سيجتهدون في طَردِه عن أنفسهم .

وتغشّاني الحزن ، ورأت هي ذلك ، وعرفته ؛ فأخرجت مِنديلها المعطَّر ، ومسحت وجهها به ، ثمَّ هزَّته في الهواء ، فإذا الهواءُ منديلٌ معطَّر آخر ، مَسَحَتْ به وجهي . . .

وقال الأستاذ (ح) : آه من العِطر ! إنَّ منه نوعاً لا أستنشيه مرَّةً إلا ردَّني إلى حيث كنت من عشرين سنة خلَت، كأنَّما هو مسجَّلٌ بزمانه، ومكانه في دماغي. . .

فضحكت هي ، وقالت : إنَّ عِطرنا نحن النِّساءَ ليس عِطراً بل هو شعورٌ نُثبته في شعورٍ آخر . . .

فقلت أنا : لا ريب أنَّ لهذه الحقيقة الجميلة وجهاً غير هذا . قالت : وما هو ؟ .

قلت : إنَّ المرأة المعَطَّرة المتزيِّنَة ، هي امرأةٌ مُسلحةٌ بأسلحتها . أفي ذلك ريب ؟! .

قالت : لا .

قلت : فلماذا لا يُسمى هذا العِطر بالغازات الخانقة الغراميَّة . . . ؟

فضحكت فنوناً ؛ ثمَّ قالت : وتُسمّىٰ (البودرة) بالدِّيناميت الغراميِّ .

ونقلني ذلك إلى نفسي مرَّة أخرى ، فأطرقتُ إطراقةً ؛ فقالت : ما بك ؟

قلت : بي كلمة الأستاذ (ح) إنَّها ألهبَت في قلبي جَمرةً كانت خامدةً .

قالت : أوْ حَرَّكتْ نقطةَ عطْرٍ كانت ساكنةً . . . !

فقلت : إنَّ الحبَّ يضع روحانيَّته في كلِّ أشيائه ، وهو يغيِّر الحالة النَّفسيَّة للإنسان ، فتتغيَّر بذلك الحالة العقليَّة للأشياء في وهْم المحبِّ . (فعِطرُ كذا) مثلاً . . . هو نوعٌ شَذِيٌّ من العِطر ، طيِّب الشَّميم ، عاصِفُ النَّشوة ، حادُّ الرّائحة ؛ لكأنَّه يَنشر في الجوِّ روضةً قد مُلئت بأزهاره ، تُشمُّ ، ولا ترى ، وإنَّه ليجعل الزَّمن نفسه عَبقاً بريحه ، وإنَّه ليُفعم كلَّ ما حولهِ طيباً ، وإنَّه ليسحَرُ النَّفسَ فيتحوَّل فيها . . .

وهنا ضحكت ، وقطعت عليَّ الكلام قائلةً : يظهر لي أنَّ (عِطر كذا) هاجرٌ ، أو مخاصمٌ . . .

قلت : كلاً ، بل خرج من الدُّنيا ، وما انتشَقْتُ أرَجَه[1] مرَّةً إلا حسبتُه يَنفَح من الجنَّة .

فما أسرع ما تلاشى من وجهها الضَّحك ، وهيئتُه ، وجاءت دمعةٌ وهيئتُها . ولمحتُ في وجهها معنىً بكيتُ له بكاءَ قلبي ! .

جمالُها ، فتنتُها ، سحرُها ، حديثُها ، لهوها ؛ آه حين لا يبقى لهذا كلِّه عيْنٌ ، ولا أثر ، آه حين لا يبقى من هذا كلِّه إلا ذُنوبٌ ، وذُنوبٌ ، وذنوب ! .

* * *

(١) « أرجه » : الأَرَج : انتشار رائحة الطيب .

وأردنا أنا و(ح) بكلامنا عن الحبِّ ، وما إليه ، ألا نوحِشها من إنسانيَّتنا ، وأن نبلَّ شوقها إلى ما حُرمته من قدرها ؛ قدرَ إنسانةٍ فيما نتعاطاه بيننا . والمرأة من هذا النَّوع إذا طمِعتْ فيما هو أغلى عندها من الذَّهبِ ، والجوهر ، والمتاع ؛ طمِعت في الاحترام من رجلٍ شريفٍ متعفِّفٍ ، ولو احترامَ نظرةٍ ، أو كلمة . تَقْنَع بأقلِّ ذلك ، وترضى به ؛ فالقليل ممّا لا يُدرَك قليله هو عند النَّفس أكثر من الكثير الَّذي يُنال كثيره .

ومثل هذه المرأةِ ، لا تَدري أنت : أطافت بالذَّنْبِ أم طاف الذَّنْبُ بها ؟!
فاحترامُها عندنا ليس احتراماً بمعناه ، وإنما هو كالوجوم أمام المصيبة في لحظةٍ من لحظات رَهْبةِ القدر وخُشوع الإيمان .

وليست امرأةٌ من هؤلاء إلا وفي نفسها التندُّم ، والحسرة ، واللَّهفة ممّا هي فيه ، وهذا هو جانبهنَّ الإنسانيُّ الَّذي يُنظر إليه من النَّفس الرَّقيقة بلهفةٍ أخرى ، وحسرةٍ أخرى ، وندمٍ آخر . كم يرحم الإنسان تلك الزَّوجة الكارهة المرغمة على أن تعاشرَ مَنْ تكرهُه ، فلا يزال يَغلي دمُها بوساوِسَ ، وآلامٍ من البغض لا تنقطع ! وكم يرثي الإنسان للزَّوجة الغيور ، يغلي دمها أيضاً ، ولكن بوساوِس وآلام من الحبِّ ! ألا فاعلم : أنَّ كلَّ امرأةٍ من مثل هذه الحسناء تحمل على قلبها مثلَ همِّ مئة زوجةٍ كارهةٍ ، مرغمةٍ ، مستعبَدةٍ ، يُخالطه مثل همِّ مئة زوجة غيورٍ ، مكابِدةٍ ، منافسةٍ ؛ ولقد تكون المرأة منهنَّ في العشرين من سنِّها وهي مما يكابدُ قلبها في السَّبعين من عُمر قلبها ، أو أكثر .

وهذه الَّتي جاءتنا إنَّما جاءتنا في ساعةٍ منّا نحن ، لا منها هي ، ولم تكن معنا لا في زمانها ، ولا في مكانها ، ولا في أسبابها ، وقد فتحت البابَ الَّذي كان مغلقاً في قلبها على الخفر ، والحياء ، وحوَّلت جمالها من جمالٍ طابعُه الرَّذيلةُ ، إلى جمالٍ طابعُه الفنُّ ، وأشعرت أفراحَها الَّتي اعتادتها رُوحَ الحزن من أجلنا ، فأدخلت بذلك على أحزانها الَّتي اعتادتها رُوحَ الفرح بنا .

من ذا الَّذي يعرف : أنَّ أدبه يكون إحساناً على نفسٍ مثل هذه ، ثُمَّ لا يُحسِن به[1] ؟! .

* * *

(١) في كتابنا « السَّحاب الأحمر » فصل طويل عنوانه (الرَّبيطة) ، كتبناه مثل موضوع (الجمال البائس) ، غير أنه بمنحى آخر ، ومعانٍ أخرى . =

تتجدَّدُ الحياة متى وَجد المرءُ حالةً نفسيَّةً تكون جديدةً في سرورها ، وهذه المرأة المسكينة الَّتي لا يَعنيها مِن الرَّجل مَن هو ؟ ولكن كم هو . . . ؟ لم ترَ فينا نحن الرَّجل ؛ الَّذي هو « كم » ، بل الَّذي هو « مَن » . وقد كانت من نفسِها الأولى على بُعدٍ قَصِيٍّ ، كالَّذي يمدُّ يده في بئرٍ عميقة ؛ ليتناولَ شيئاً قد سقط منه ؛ فلمَّا جلستْ إلينا ، اتّصلتْ بتلك النَّفسِ من قربٍ ؛ إذ وجدَت في زمنها السّاعةَ الَّتي تصلح جسراً على الزَّمن .

قال الرّاوي :

كذلك رأيتُها جديدةً بعد قليلٍ ، فقلت للأستاذ (ح) : أما ترى ما أراه ؟

قال : وماذا ترى ؟ فأومأتُ إليها ، وقلت : هذه الَّتي جاءت من هذه . إنَّ قلبها يَنشر الآن حولها نوراً كالمصباح ؛ إذا أضيء ، وأراها كالزَّهرة الَّتي تفتَّحت ؛ هي هي الَّتي كانت ، ولكنَّها بغير ما كانت .

فقالت هي : إنِّي أحسبك تحبُّني ؛ بل أراك تحبُّني ؛ بل أنت تحبُّني . . . لم يخفَ عليَّ منذ رأيتكَ ، ورأيتني .

قلتُ : هَبيهِ صحيحاً ، فكيف عرفتِه ، ولم أصانِعْكِ ، ولم أتملَّق لك ، ولم أزد على أن أجيءَ إلى هنا ؛ لأكتب ؟! .

قالت : عرفته من أنَّك لم تصانعْني ، ولم تتملَّق لي ، ولم تزد على أن تجيء إلى هنا ؛ لتكتب . . .

قلتُ : ويحكِ ، لو كُحِلت عينُ (المكرسكوب) لكانت عينُك . وضحكنا جميعاً ؛ ثمَّ أقبلتُ على الأستاذ (ح) فقلت له : إنَّ القضايا إذا كثر وُرُودها على القاضي ؛ جَعلتْ له عيناً باحثةً .

* * *

قال الرّاوي :

وأنظرُ إليها ، فإذا وجهها القمريُّ الأزهرُ قد شَرِق[1] لونُه ، وظهر فيه من الحياء

= والربيطة هي الكلمة العربية التي تقابل كلمة Maltrese يريد بها الأوروبيون: المرأة البغي، ترتبط بأجر في دار الرجل لتحلَّ محل الزوجة . (ع) .

(١) « شرق » : اكفهرّ .

ما يظهر مثله على وجه العذراء المخدَّرةِ ؛ إذا أنت مسستها بريبةٍ[١] ؛ فما شككتُ : أنَّها السّاعةَ امرأةٌ جديدةٌ ، قد اصطلح وجهها ، وحياؤها ، وهما أبداً متعاديان في كلِّ امرأة مكشوفةِ العفَّة . . .

وذهبتُ أستدرك وأتأوَّل ، فقلت لها : ما ذلك أردتُ ، ولا حَدَسْتُ على هذا الظَّنِّ ، وإنَّما أنا مُشْفِقٌ عليكِ ، متألمٌ بك ، وهل يعرُض لكِ إلا الطَّبقة النَّظيفة . . . من المُجْرمين ، والخُبثاء ، وأهل الشَّرِّ ؛ أولئك الذين أعالِيهم في دور الخلاعةِ والمسارح ، وأسافِلهم في دور القضاء والسُّجون ؟

فقالت : أعتَرِفُ بأنَّك لم تحسن قلبَ الثّوب ، فظهر لكلِّ عينٍ : أنَّه مقلوبٌ ؛ لكنَّك تحبُّني . . . وهذا كافٍ أن ينهض منه عُذرٌ !

قال الأستاذ (ح) : إنَّه يحبُّكِ ، ولكن أتعرفين كيف حبُّه ؟ هذا باب يضعُ عليه دائما عِدَّةً من الأقفال .

قالت : فما أيسرَ أن تجدَ المرأةُ عِدَّةً من المفاتيح . . .

قال : ولكنَّه عاشقٌ يُنيرُ العشق بين يديه ؛ فكأنَّه هو وحبيبته تحت أعينِ النّاس : ما تطمع إلا أن تراه ، وما يطمع إلا أن يراها ، ولا شيءَ غير ذلك ؛ ثمَّ لا يزال حسنها عليه ، ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا .

قالت : إنَّ هذا لعجيبٌ .

قال : والَّذي هو أعجب أن ليس في حبِّه شيءٌ نهائيٌّ ، فلا هَجرٌ ، ولا وصلٌ ؛ ينساكِ بعد ساعة ، ولكنَّك أبداً باقيةٌ بكلِّ جمالِك في نفسه . والصَّغائر الَّتي تبكي النّاسَ وتتلذَّع في قلوبهم كالنّار ؛ ليجعلوها كبيرةً في همِّهم ، ويطفئوها ، وينتهوا منها ككلِّ شهواتِ الحبِّ تبكيه هو أيضاً ، وتعتلج في قلبه ، ولكنَّها تظلُّ عنده صغائرَ ولا يعرفها إلا صغائر ؛ وهذا هو تجبُّره على جبّار الحبِّ ! .

* * *

قال الرّاوي :

ونظرت إليها ، ونظرتْ ، وعاتبتْ نفسٌ نفساً في أعينهما ، وسألتِ السّائلة ، وأجابتِ المُجيبة ، ولكن ماذا قلتُ لها ؟ وماذا قالت ؟ . . .

* * *

---

(١) أي : لأنها ظنَّت أنه يقول : إنها اعتادتِ الرِّجال . (ع) .